الثنائيات المتضادة في رسائل الخلفاء الأمويين

بحث تقدّمت بها

د .انتهاء عباس عليوي الجبوري

الثنائيات المتضادة في رسائل الخلفاء الأمويين

بسم الله الرحمن الرحيم

تعد الثنائيات المتضادة فناً أدبياً من فنون الأدب العربي، ومن الوسائل الفنيّة التي يعتمدها المبدع في بناء نصه الإبداعيّ ؛ وذلك بالربط بين حالتين أو أكثر بعلاقة جدلية قائمة على التناقض أو التعاكس، تعمل على إثارة المتلقي وتحفّزه على الترقّب والتنبّه وصولاً إلى الترابط الدلاليّ المتولّد من حركة الثنائيات المتضادة، عما سنرى في ثنايا البحث.

المقدمة:

تعد الثنائيات المتضادة فناً أدبياً من فنون الأدب العربي، ومن الوسائل الفنيّة التي يعتمدها المبدع في بناء نصه الإبداعيّ ؛ وذلك بالربط بين حالتين أو أكثر بعلاقة جدلية قائمة على التناقض أو التعاكس، تعمل على إثارة المتلقي وتحفّزه على الترقّب والتنبّه وصولاً إلى الترابط الدلاليّ المتولّد من حركة الثنائيات المتضادة، إذ إنّ استعمال الألفاظ استعمالا ضدّيًا متعاكسًا يجعل صورة النص واضحة جلّية للعيان؛ ومن ثم تسمح للمتلقي استخلاص الصورة الإبداعية في نسيج السياق الأدبي من خلال ((الجمع بين المتضادين أي معنيين متقابلين في الجملة)) [١] ؛فضلا أنَّ التضاد بتشديد الدال يطلق على معانٍ منها التقابل والتنافي في الجملة ومنها الطباق .. وهذا المعنى من مصطلحات أهل البديع [٢] .وقد تعدَّ الثنائيات المتضادة من المحسنات البديعية وهي أقرب وأيسر من السجع [٣] .فتضفي على النص جواً مشحوناً بالحركات الثنائية ، إذ أنَّ للثنائيات المتضادة هيمنة وفعّالية في فناءات النص على مستوى الإيقاع فتخلق فضاءات إيقاعية متناغمة مع الجو الفكري والنفسي الذي يحيط بلحظة إنتاج النص الذي يتناغم مع الدفقات الشعورية للمبدع .

وتحقق الثنائيات المتضادة بوصفها دعامة بنائية ،ومقومة أسلوبية إنفتاحاً نصياً مذهلاً يطفئ رغبة الكبت لدى الأديب ؛ وقد كان لظاهرة الثنائيات المتضادة في رسائل الخلفاء الأمويين صلة وأثر واضح في حياة المجتمع يستطيع المتلقي أن يتبين أثرها النفسي لدى الخلفاء الأمويين من خلال نتاجهم النثري الذي بدا واضحاً فيه أنهم ((أخذوا يختصمون في شؤون الدين فهم حول الهدى والضلال، وحول الإيمان والكفر ، فأظهرتها الثنائيات المتضادة .

والثنائيات المتضادة المبثوثة في رسائل الخلفاء الأمويين تلفت الأنظار إلى التماس جماليات الثنائيات المتضادة في المناحي الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية في ذلك النسيج النثري الذي ارتفع إلى مستوى الإبداع والتميز ؛ لأنها تتعدى المستوى السطحي للنفس وتسعى إلى توسيع دائرة الرؤية معتمدة على الدلالة الإيحائية بين طرفي الثنائية المتضادة والدلالة السياقية بين الثنائية والسياق ، والعلاقة التي تربط بين الثنائيات في النصوص النثرية هي علاقة تضاد أو تناقض . وقد اعتمد البحث على الثنائيات المتضادة الأساسية التي بلورت رؤية الخلفاء الأمويين للوجود والحياة في العصر الإسلامي ، وقد نبعت منها ثنائيات أُخرى تعبر عن رؤيتهم للوجود والحياة .

لذا راقني دراسة الثنائيات المتضادة في رسائل الخلفاء الأمويين وما امتاز به من ثراء عظيم في مفرداته، وإتقان محكم في تراكيبه، وزُخرف أخاذ في أشكاله، وبحال موسيقي في جرسه، كل كلمة فيه أخذة برقاب الكلمة الأخرى في صنعة أدبية متقنة، تؤدي داخل النص وظيفة تستحق البحث عنها. لذا كان الالتفات إليها ضرورة ملحة ؛ ودرسها ضرورة يقتضيها البحث الأدبي ، وبعد جمع المادة ارتأيتُ تقسيم البحث على تمهيد وأربعة مباحث :

ففي التمهيد حاولتُ توضيح مفهوم التضاد والعلاقات الثنائية ومفهوم الرسائل لغة واصطلاحا.

وعمدت إلى الإيجاز في تناوله لسبقه بعدّة دراسات أسهبت في تفصيله والوقوف عند كثير من جزئياته .

المبحث الأول : أفردته لدراسة موضوعات الثنائيات المتضادة في رسائل الخلفاء الأمويين

إذا درست فيه الثنائيات المتضادة (الرضا و السخط) و (الحلم و الغضب). (الأناة و العجلة) ، و (العزة و الذلة). (الدنيا و الآخرة).

والمبحث الثاني : درست فيه **الإيحائية في الثنائيات المتضادة في رسائل الخلفاء الأمويين** ،في حين كان المبحث الثالث يتناول **الصورة الجمالية في ثنائيات المتضادة في رسائل الخلفاء الأمويين** ،**إما المبحث الرابع فتناول الموسيقى في ثنائيات المتضادة في رسائل الخلفاء الأمويين** ،

التمهيد:

يمتاز أدبنا العربي بخصائص كثيرة، من حيث التنوع في الأساليب، وإن كان قد أصابه في عصور الركود والانحلال شيء من التخلف في بعض نواحيه إلا أنه لم يفقد شيئاً من حيويته وروعة خصائصه القديمة التي جعلت منه خلال العصور الوسطى أعظم الآداب الحية وأغناها وأخصبها وأوسعها مدى.

ومما لا شك فيه أن الأدب العربي، يتمتع بتنوع الفنون النثرية [٤]، ومن هذه الفنون التي يكاد ينفرد الأدب العربي بأصوله وتقاليده الراسخة التي جعلت منه فناً حقيقياً ،والرسائل تعد فناً أدبياً نثرياً احتل مكانة لائقة به في تاريخ الأدب العربي بين سائر الفنون الأدبية النثرية، كالخطابة والكتابة، والوصايا والمقامات [٥].

والرسائل فن من فنون الأدب العربي نشأ في ظل انتشار الكتابة وتنظيم الدواوين الحكومية، وهي ضرب من ضروب الإيجاز ولون من ألوان البلاغة [٦]، وكانت معروفة لدى العصر الجاهلي وفي عصر صدر الإسلام، إلا أنها اتسعت استعمالها في عهد الخلفاء الراشدين عندما استدعاها اتساع رقعة الدولة الإسلامية، اذ اضطر الخلفاء والأمراء والولاة إلى الكتابة برأيهم على ما يرفع إليهم من مظالم ومطالب، ومما ساعد على وجود هذا الفن عناية الخلفاء والسلاطين وأمراء بإنشاء ما يسمى في ذلك العهد بديوان الإنشاء[٧]، وكان هذا الديوان يلقي العناية الكاملة من رجال البلاط ويمهدون إلى

رجال هذا الديوان السبل للاضطلاع بالمناصب من نبع من رجال الأدب ذو البديهة الحاضرة والبلاغة[٨].

ثم انتشر هذا الفن الأدبي في العصر الأموي نظراً لشيوع الكتابة بين أفراد الأمة، ونشأة جيل من الكتاب ممن اختطوا لأنفسهم أساليب جديدة من التعبير الكتابي حتى أصبحت كتاباتهم أنموذجا يحتذي به [٩]، وساعد على هذا التطور الفتوحات الإسلامية واختلاط العرب بغيرهم من الدول المجاورة لدولة الإسلام،وما صاحبها من الآثار السياسية والاجتماعية والدينية الناجمة عن ذلك.

والرسالة لغة: الرَّسل القطيع من كل شيء والحجج إرسال، والرَّسل: الإبل،والتَّرسُّل كالرِسّلْ، والترَّسُّلُ في القراءة والترسل واحد قال: وهو التحقيق بلا عجلة،وترسَّل في قراءته: اتَّأَد فيها، وقد رَسِل رَسَلاً ورَسالة، وجمع الرسالة الرَّسائل، والإرسال: التوجيه وتَراسل القومُ: أرْسَل بعضهم إلى بعض والرَّسول الرِسّالة والمُرسَل [١٠].

واصطلاحاً: فهي فن من فنون النثر القولية عرفها العرب منذ القدم وهي مثل فنون النثر الأخرى كالقصة والمسرحية، السيرة الذاتية لها خصائصها المميزة التي تجعلها فناً قائماً بذاته [١١].

والرسائل مفهوم نثري نجده في الأدب العربي واضحةً مؤثرة، مؤدية دورا جوهريا في إيصال الفكرة التي يروم الأديب إيصالها إلى المتلقي ؛ ولا تبدو الرسائل واضحة إلاّ إذا نظر إليها من خلال حالة فنية تهز كيان الأديب ،فكانت الثنائيات المتضادة في رسائل الخلفاء الأمويين بارزة وواضحة ومبثوثة في طيّات رسائلهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

المبحث الأول : موضوعات الثنائيات المتضادة في رسائل الخلفاء الأمويين: وهي تلك الثنائيات الضدية التي يقوم عليها الكون بأسره، الواقعة أمام الأنظار في مشاهد الكون، وصفات الخلائق على اختلاف ألوانها وأشكالها مبرزين دائماً قطبين تتراوح بينهما الأشياء، أو تنشأ عنهما قضايا الوجود، أو تقوم بينهما تلك الفجوة التي تحدّد حركة الأمور ومسارها ضمن هذين القطبين، وهي التي تحدد مسافة التوتر في لغة الطباق والتي تجمع أشكال المغايرة بين الأشياء في اللغة وفي الوجود، وهذا يعني أن كل نقطة هي حزمة من المعاني تشع باتجاهات متنوعة متعاكسة، ضمن القضايا الجوهرية التي عرضتها الرسائل الخلفاء الأمويين، وسعت إلى إيجاد قصور لها:

أ- ثنائية العز والذل...

وأمثلة ذلك: كتب الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى عماله: ((أما بعد فإن الله أكرم بالإسلام أهله، وشرفهم وعزهم، وضرب الذلة والضغاد على من خالفهم))[١٢].

فالطباق بين (العز) و (الذّل)، وهذه الثنائية هي أصل الكون، لأنّ الكون قائم على صراع بينهما أزلي لا ينقطع ولا ينتهي، وهي قضية حياتية وجودية يتداولها الناس في لحظات تأمل فيما حاق بهم أو بغيرهم، وعليه فإنّ الذّلة الكائن وعزه جزء من جدلية الكون كله، ومن المتعذر فصل العزة عن المذلة من مختلف جوانب الإنسان الحياتية، فأصل الوجود قائم على صراع بين غريزة (العزّ) و (الذّلة) الأولى تعني السعي وراء الرفعة والشرف، والثانية تعني الحقارة والضعف وعليه فإن التوازن بينهما يجنب الإنسان عواقب الصراع ولاسيما صراع النفس مع الملذات والأصوات الضالة التي ستؤدي إلى انحطاط قيمة نفسية الإنسانية [١٣]

ب- ثنائية الأناة والعجلة:

وقضية أخرى نلمسها حاضرة بشدّة في رسائل الخلفاء، فالأناة الذي هو أساس الملك، والذي يرقى بالدولة والمجتمع إلى مراتب سامية فيها البناء والازدهار وفيها الراحة والاطمئنان والشعور بالأمان، وغياب هذا القطب وحضور نقيضه (العجلة) يقود الدولة والمجتمع إلى الدمار، وعليه فإن غلبة القطب قضية.

ت- ثنائية الحلم والغضب:

وهي من الثنائيات المتضادة الأخرى التي عرضتها رسائل الخلفاء الأمويين، فالحلم الذي يلزمه حسن التعامل، وإدارة شؤون الدولة، والغضب الذي يكون نتيجة حتمية على ما سلف من أفعال، وعليه تأتي الثنائية المتضادة لتكون مُسعفاً روحيّاً يُعزز ما لدى الفرد من طاقات كامنة وقناعات ثابتة، عدا عن كونه مسعفاً فنياً للخلفاء في رسائلهم، فقد أرسل معاوية رسالة إلى عمرو بن العاص: ((ومن لا تنفعه التجارب لا يبلغ المعالي ولا يبلغ رجل مبلغ الرأي حتى يغلب صبره شهوته وحلمه غضبه))[١٤].

فنرى (الحلم) يصارع (الغضب)، ونرى الغضب يصطدم مع الحلم ليوّلد عنه قيام شخصية صلبة متيقنة نشأت من ذلك الصراع بين ذاك القطبين المتناحرين.

ث- ثنائية الرضا والسخط:

وهو موضوع جوهري أخر كان له حضوره في رسائل الخلفاء الأمويين، ف(الرضا والسخط)، مقومان جوهريان لشخصية المرء ومسيرته وحضوره الفاعل أو حضوره الطاغي، وهنا لا يقف المرسل موقف المتأمل في الأحوال التي تمرُّ والمخاطر التي تعصف بالمجتمع فتأتي رسالة عمر بن عبد العزيز إلى ولي العهد من بعده يزيد بن عبد الملك: ((ولستُ أستطيع أن أخفي عليه من عملي شيئاً،

فإن رضي عني فقد أفلحت ونجوت من الهوان الطويل، وإن سخط عليّ فيا ويحي نفسي إلى ما أصير))[١٥].

ليبين صفة الرضا من الله (ﷻ) أو نقيضها (السخط) في شخصية الناصح وغلبة إحداهما على الأخرى، وهنا تأتي الجملة الخبرية لتُعزّز حضور شخصية الحاكم وحسن إدارته لشؤون الدولة والرعية فقال ((ولست استطيع ....)) الذي يحمل معاني الثواب في حال الرضا، ومعاني العقاب في حال السخط.

ج- ثنائية (الدنيا والآخرة):

وهنا تأتي الرسالة لتبين المنهج الذي اختاره الحاكم لنفسه أو سمات بعض الخلفاء، فيكون الغرض إثبات حقيقة يُقصد من خلالها لفت نظر المتلقي أو المرسل إليه إلى أمر ما ليتم تداركه. ففي رسالة عمر بن عبد العزيز إلى يزيد بن عبد الملك: ((سلام عليك، أحمد الله اليك الله الذ لا إله إلا هو، أمّا بعد: فإني كتبت وأنا دنف من وجعي، وقد علمتُ إني مسؤول عمّا وليت يحاسبني عليه مليك الدنيا والآخرة))[١٦].

لتتشكل هيأتان متصارعتان (الدنيا) تصارع (الآخرة)، وهذا الصراع لم يكتفِ بجعل النصّ سامياً فنياً، بل جعلته نفعياً أكثر من كونه فنياً، فهي تصوّر تصويراً مبطناً الصراع القائم في نفوس بعض الحكام، وتغلب الجانب غير المسؤول في شخصيتهم وميلهم إلى الراحة وإقبالهم على الحياة وإغفالهم لواجبهم تجاه قضايا الرعية، وعليه فقد أرسى الطباق قواعد ثابتة، وتوجيهات محددة وأصولاً ينبغي الأخذ بها، وزاد المعنى قوة، وأضفى على السياق حُسناً وبهاءً.

المبحث الثاني:الإيحائية في الثنائيات المتضادة في رسائل الخلفاء الأمويين ...

وهذه جمالية أخرى من جماليات الثنائية المتضادة، وهي قدرتها على تنشيط الفعالية الإدراكية، بوصفه منبهاً أسلوبياً يهدف من خلاله إثارة المتلقي، وجذب انتباهه[١٧]،لذلك فأن الصورة الإيحائية تفوق الصورة التقريرية لاقترانها بالمشاعر والانفعالات ، وتختلف باستعمالها من أديب إلى آخر بحسب قدرته وبراعته في رسم الصورة وجعلها ناطقة بالمشاعر والانفعالات ((فالأفكار التجريدية تقضي على روح الشعر، إذ أن روحه في صوره))[١٨]، وهناك عوامل تساعد على إنجاح الصورة وتكاملها وتألف مكوناتها وهي صدق الشعور وسعة الخيال وحسن التعبير والقدرة على استيعاب الحدث[١٩]، ونخلص من ذلك إلى إن الصورة الإيحائية تتألف من ثلاثة عناصر هي: المعنى، واللفظ، والخيال[٢٠].

ينوب كل منهما عن الآخر إذا ما حذف من العبارة[٢١]. فهي تظل مبدأ جوهرياً وبرهاناً واضحاً على نبوغ الشاعر[٢٢]، فضلاً عن ذلك أنها تبث الحياة في العبارات وتكسبها رونقاً وجمالاً وتمنحها القدرة على الإيحاء والإثارة[٢٣].

وتحريك همته لمشاركة المتكلم في رحلته في النصّ أو العبارة وهذا نابع مما هو في الطباع من مقارنة بين الأضداد ومن طبيعة الحياة التي تقوم أساساً على فكرة الثنائيات الضدية نظراً لكثرتها أمام الأنظار في مشاهدات الواقع اليومي، وهي من طبيعة الممكن اللغوي الذي ينطلق من أنّ الإحاطة بالمتناقضات. وهذه تصحُبها مظاهر من التوقع والترقب.

فالمتلقي يُعدُّ نفسه لتلقي ما يدرك بين المعنى الأول والثاني في الطباق، فإذا وصل إلى هذه المرحلة أحس بالمتعة ويأنس حين يصيب حدسه. وهذا يعدُّ من قيم الطباق وجماليته، إذ أن القدرة على لمَّ شتات المتضادات في موضع واحد يُحدث في الذهن ضرباً من الانتقال السريع بين الشيء ونقيضه وهذا يساعد على تنشيط الفعالية الإدراكية، وهذا يؤكد القاعدة البلاغية وهي أن الطباق من الأمور الفطرية التي لها علاقة وثيقة ببلاغة الكلام، إذ الضد أقرب الى البال عند ذكر ضده، ويبرزه في صورة قوية ومؤثرة. وتكمن القيمة الإيحائية للفن الطباق لما تحويه من دلالات تنقل السامع من معنى إلى معنى آخر، وهو ما عرف بمعنى المعنى[٢٤]،، فهي ليست مجرد أداء صورة معنى بألفاظ لا تدل على ظاهر مدلولها، وإنما هي صياغة فكرة تنبع من وجدان صاحبها يصوغها في ألفاظ متماسكة ومترابطة[٢٥].

ومنها في رسالة عمر بن عبد العزيز إلى عماله: ((فلا تولّين أمور المسلمين أحداً من أهل ذمَّتهم وخراجهم، فتبسط عليهم أيديهم وألسنتهم، فتذّلهم بعد أن أعزهم الله))[٢٦].

فثنائية المتضادة بين الذلة والعزة، فذهب بطرفي الطباق إلى أقصى طرفي التناقض، فالمتلقي حين تفرغ مسامعه للفظة الأولى، يُعدُّ نفسه مباشرة لسماع النقيض لكلمة (الذّلة)، وبذلك تتهيأ مداركه

لاستجلاب نقيضها، فتأتي الكلمة المضادة التي ترد من المتكلم التوافق توقعاته أو تناقضها، وهنا تؤكد أن المتلقي ليس مجرد مراقباً محايداً، يتقبل كلّ ما يُلقى على سمعه بل تثير نوازعه في المشاركة والتوقع، فيولد لديه مشاعر مختلطة فتهزه وتشاركه في الوصول إلى التوقع، فيخلق لديه نوعاً من الدهشة [٢٧].

أرسل الخليفة معاوية بن أبي سفيان رسالة إلى أبنه يزيد ذكر فيها: ((أما بعد فقد أدّت السنة التصريح إلى اذن العناية بك ما فجع الأمل فيك وباعد الرجاء منك))[٢٨].

فالمتلقي عندما يسمع عبارة (فجع فيك الأمل) يتوّقع أن العبارة الاتية ستكون نقيضاً لها، فيبدأ بإشغال ذهنه لإيجاد العبارة المضادة لها، فإذا ما تحقق توقعه أُصيب بالفرح والإدهاش اللذين يحدثان لمن يعي الأفعال لمتضادة إلى فاعل واحد، فذهب بطرفي الطباق إلى أقصى التناقض وهي عبارة (باعد الرجاء منك).

المبحث الثالث: الصورة الجمالية في ثنائيات المتضادة في رسائل الخلفاء الأمويين ...

وهي كل صورة غلبت على أجزائها وتركيبها الجمالية ،وتعتمد على عناصر ندركها بالبصر[٢٩]، والحركة اللذان من شانهما تجعل الصورة أمامنا حية ومتدفقة وأكثر جمالية لأنّها تعرض مواقف من الحياة وتعتمد على قدرة الشاعر في جذب انتباه المتلقي ومدى تفاعله مع الصورة الحركية.

فثنائية المتضادة فن من فنون الحياة، فضلاً عن أنه حلية صوتية لها أثر في رصد كثير من المظاهر الحياة تعكس مسيرة صاحبها النفسية والفنية، وذلك لأن الصراع بين ضدين تنشأ من الطاقة

الذاتية ورؤيتها لظواهر الجمال لأن من الطبيعي أن ينشأ الجمال عن نزاع خفي بين ضدين [٣٠]، فقد أرسل معاوية بن أبي سفيان إلى أبنه يزيد: ((أعلم يا يزيد أنك طريد الموت وأسير الحياة))[٣١].

فطابق بين هيئتين مستقلتين تماماً الأولى: مكروهة مرفوضة، وهي (الموت)، والأخرى وهي (الحياة) حسنة مقبولة، لأنّها حتمية لمن أراد أن يسلك مسلكها بصورة صحيحة، فتطابق هنا منح النص طاقة تأديبية مؤثرة، وذلك من خلال تقبيح القبيح ورفضه وإظهار عواقبه للتنفير منه.

ومن أمثلته أيضاً رسالة الخليفة الوليد بن عبد الملك إلى سليمان بن عبد الملك: ((قد فهم أمير المؤمنين من كتابك فما أحسن ما اعتذرت به وحذوت عليه وأنت الصادق في المقال الكامل في الفعال، وما شيء أشبه بك من اعتذارك وما شيء أبعد منك من الذي قيل فيك والسلام))[٣٢].

شكّل في العبارة الأولى هيأة مستقلة تماماً هي هيأة (وما شيء أشبه بك من اعتذارك)، ثم قابلها هيأة أخرى مستقلة في العبارة الثانية (وما شيء أبعد منك من الذي قيل فيك)، وكأن المرسل يرغب إلى المخاطب أو يوجهه لاتخاذ المسار الأمثل والأولى لما فيه من خير له الصدق، وينفره من صفة هي مكروهة لديه (الكذب) ويردعه عنها، ومن هذه الثنائيات المتنافرة المتلاحقة لتأتي الجملة الإنشائية (والسلام) لتخبره في انتقاء إحدى الصفتين، صفة الصدق، أو صفة الكذب، وتهددّه في الوقت نفسه.

رابعاً: موسيقى في الثنائيات المتضادة في رسائل الخلفاء الأمويين...

يعد الطباق فن من فنون التحسين اللفظي والإيقاع النفسي الممتد من المعاني المتنافرة التي نشأت من تفاعل عنصرين متناقضين، فيتولد الإيقاع الذي تدركه النفس والروح أكثر من السمع والبصر، اللذان يدركان الإمكانات الصوتية والصورية، بل يخلق حالة شعورية جديدة يطرب لها المتلقي، لأنّه يُعرض عن الموسيقى والإيقاع إلى إيقاع نغمي آخر يتمثل بالطباق، ذلك لوجود المناقضة [٣٣].

فلغة فن الطباق هي كلام موسيقي تنفعل لموسيقاه النفوس وتتأثر بها القلوب، وتزيد من انتباه المتلقي، وتضفي على الكلمات حياة فوق حياتها، وتجعلنا نحس بمعانيه، فضلاً عن ذلك أنها تهب الكلام مظهراً من مظاهر العظمة والجلال، وتجعله مصقولاً مهذباً تصل معانيه إلى القلب بمجرد سماعه[٣٤].

ولو تتبعنا الثنائيات المتضادة في رسائل الخلفاء الأمويين لوجدنا أنه لم يبنِ على استدعاء لغوي سهل لأي لفظة بل سيلمس أنهم وظفّوه لصالح الصورة النثرية التي رسموها، ولصالح ذاك الإيقاع الخفي الذي أحدثه إيقاع الطباق من خلال مجموعة من المتضادات الثنائية [٣٥]، ومنها رسالة الخليفة هشام بن عبد الملك إلى خالد بن عبد الله والي العراق: ((أما بعد فقد بلغ أمير المؤمنين عنك أمر لم يحتمله منك إلا لما أحبَّ من ربِّ الضيعة قبلك، واستتمام معروفه عندك، وكان أمير المؤمنين أحق من استصلح ما أفسد عليه منك))[٣٦].

فتطابق بين (أصلح) و (افسد)،وبين فقد بني على المواجهة، من خلال أثرها اللفظي والمعنوي في سبك الأسلوب سبكاً قوياً وإظهاره في صورة صوتية تأمر لها الآذان، وتلذ لها النفس وتهز لها الروح بإيقاعها المنغم وكلماتها المنمقة بالحركة [٣٧].

ثم تضاف إلى ذلك النغم فاعلية حركية جديدة المتمثلة بين نقيضين (لك، منك) ليخلق في فكرنا نغماً نظمياً غنائياً، ليحقق ذلك الجرس الخفي وحضور جمالياته الصوتية [٣٨].

أرسل الخليفة معاوية بن أبي سفيان إلى ابنه يزيد قائلاً: ((وأعلم أن الذي وطأك وسوسة الشيطان، وزخرفة السلطان مما حسّن عندك قبحه، واحلولى عندك مرّه))[٣٩].

أشعرنا التضاد بين (حسن، قبح) و (احلولى، مرّه) بالإيقاع المنغم المتولّد من التنافر بين الألفاظ إلى حدّ الاختلاف التام في الدلالة [٤٠]، مما أحدث أثراً صوتياً خفياً له قيمته بين القليل المرغوب فيه، وبين الكثير المكروه عنه ليثير فينا من نوازع القبول والرفض [٤١]، وما اثاره لو لا ظهور نقيضه، ولا يحدث شيء إن تغيرت الجمل عن نظمها المتناقض [٤٢]، وأثرها في احداث المتعة الفنية والإبهار الجمالي في سياق ينساب بسلاسة لا يشوبه تكلف كل هذا ليؤكد حضور الثنائية المتضادة الفاعل في رسائل الخلفاء الأمويين، وليثبت مهارات أصحابها اللغوية والأدبية والبلاغية. وقد تولدتْ فيهما الدلالة من خلال التعاكس الحاصل في مواقع الكلمات فضلاً عن الإيقاع الناجم عن هذا

التعاكس الفنيّ، والذي شكّل ظاهرة أسلوبية في موضع التقابل يمكن تسميتها (التناظر عبر التضاد) أو (التضاد عبر التناظر)، أسسها المبدع بتبديل مواقع الكلمات لخلق دلالة عميقة المعنى، عن طريق شحن الإيقاع بهذا التبديل وخلق إطار جماليّ للمعنى[٤٣] .

ومن هنا نجد أن الطباق يشكّل عنصرًا مهمًا من عناصر رسم الصورة الفنيّة القادرة على توضيح المعنى وتجسيده في عبارات قصيرة موجزة، جاءتْ لتؤدي أغراضًا متنوعة، كان نصيب الجانب الإصلاحيّ السلوكيّ هو الأكبر في سياق التقابل الدلاليّ الهادف إلى الإصلاح والتوجيه وذلك من خلال خلق صور أخلاقيّة متعاكسة ذات منحى تهذيبيّ تثير ذهن المتلقي وتشدّه إليها .

الخاتمة:

إنَّ الثنائية المتضادة فن من فنون الأدب جاء في رسائل الخلفاء الأمويين في سبيكة متلاحمة العناصر في سياق لا يعتريه تصنع، بل جاء استجابة لفطرتهم الصافية، وسيلقنهم الأدبية، من دون قصد إليه أو شغف به، بل كانوا متمكنين من الأدوات اللفظية والمعنوية التي لا يمتلكها إلا أعلام اللغة ورجالها البلغاء، وظهر بوضوح فن الطباق في رسائلهم، لكن هذا الحضور لم يكن متصنع بل جاء على يسير خاطر، ولم يكن يقصد الزخرف والزينة أو حلية يتجلى بها رسائل بل جاء على سياق تحقيق مهمات متعددة منها إثبات قضية ما أو نفيها، ولتأكيد أنه نوع من التوازن الروحي والنفسي، فضلاً عن نفي مزية أحد الطرفين أو قبحه لإظهار قيمة الطرف الآخر وجماله، وقيمته في تحقيق تنشيط الفعالية الإدراكية، ونسج نوع من التنغيم الخفي والتوازن المنسجم في النص، ثم أنه حقق تعاضد اللفظ والمعنى لأداء الغرض المقصود ولأحداث الجمال والإمتاع في الرسائل.

ونستطيع القول انّ الرسائل الخلفاء الأمويين نصوص ضمت بين حُسن الصياغة وخطر المضمون من ناحية وفضل صاحبها وسمو ما يدعو إليه من ناحية أخرى، وهي بذلك تعد وثيقة أدبية ندعو إليها الباحثين إلى تحملها وتمثلها ودراستها دراسة تفي بفنون أساليبها الجميلة، ووصلت إلى جملة من النتائج يمكن تلخيصها على النحو الآتي :

- كانت الثنائيات المتضادة في رسائل الخلفاء الأمويين بارزة وواضحة .
- إنَّ الثنائيات المتضادة ظاهرة شائعة في الكون والطبيعة وتدخل في تنظيم فعاليات الإنسان الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية ، وهي وليدة ظاهرة التضاد؛ إذ إن الخلفاء في إيراد الثنائيات المتضادة كان هدفهم إلى بناء هيكل صوريّ يزداد تأثيره وتبرز جماليته بالإتكاء على التضاد .
- أظهر البحث أن المعنى اللغوي لكل ثنائية متضادة كان ذا دلالة معجمية ثابتة وذو دلالة اصطلاحية تتسع أو تضيق في العصر الأموي.

- تجلّت الثنائيات المتضادة على مستوى الصورة الشعرية الكاملة ولم تبقَ محصورة في الألفاظ المتضادة .
- كان للعوامل الاجتماعية تأثير فاعل في تشكيل الصورة النثرية القائمة على وفق الثنائيات المتضادة ولاسيما ما نجده في ثنائية (العز والذلة) و (الأناة والعجلة)و(الحلم والغضب)و(الدنيا والآخرة).
- ظهر من خلال استعمال الخلفاء الأمويين الثنائيات المتضادة أنهم جعلوا المتضادة الرئيسة منها متخفّية في بعض متضادات النص الفرعية .
- اتكأ بعض الخلفاء الأمويين في استعمال لفظة تدل على قطب ثنائية ما ؛ وأخفوا القطب الثاني بين المعاني التي عرضت في النص النثري تاركين للقارئ متعة كشفها والاستدلال عليها .
- بدا أثر الإسلام جلياً في ثنائية الصدق والكذب في مستوييهما الأخلاقي والفني على نحو واضح .

هذه هي أهم النتائج التي توصلتُ إليها من خلال بحثي في هذه الثروة الخالدة من التراث العربي ؛ فإن وفقتُ في بعض ما قدّمتهُ ؛ وإن أخطأتُ فهذا من شأن العباد ، فحسبي أني قد بذلتُ جهداً ، ولا كمال إلاّ لله جلَّ ثناؤه .

وآخِر دعوانا إن الحمدُ لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيّدنا محمد المبعوث رحمةً للعالمين ، وعلى آله وأصحابه الميامين.

الهوامش...

١- ينظر الإيضاح في علوم البلاغة ـ المعاني والبيان والبديع ، تأليف الخطيب القزويني جلال الدين أبو عبد الله محمد ابن قاضي القضاة سعد الدين بن أبي محمد عبدالرحمن القزويني ، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده ، مصر ، ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٦م : ١٩٢.

٢- موسوعة اصطلاحات العلوم الإسلامية (المعروف بكشاف اصطلاحات الفنون) للشيخ المولوي محمد أعلى بن علي التهانوي ، شركة خياط للكتب والنشر ، بيروت ـ لبنان ، ١٩٦٦م: ٨٧٤/٤.

٣- ينظر إعجاز القرآن ، للقاضي أبي بكر الباقلاني (ت ٤٠٣هـ) ، هامش الإتقان في علوم القرآن ، دار مكتبة الهلال ، بيروت ـ لبنان ، د.ت: ٥٨٤.

٤- ينظر: قضايا الأدب ومظاهر التفكير في الأسلوب، محمد الهادي الطرابلسي، تونس، مركز الأبحاث الاقتصادية والاجتماعية، ١٩٧٨: ١١٠.

٥- ينظر: تاريخ الترسل النثري عند العرب في صدر الإسلام ، د. محمود المقداد، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٣م: ١٢٥.

٦- ينظر : النثر في العصر العباسي ، د. هشام منّاع و د. مأمون ياسين، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٣م : ٢٣٠.

٧- ينظر: صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، للقلقشندي، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٨٧م.: ١/ ٧٥.

٨- ينظر: الرسائل الفنية في العصر العباسي، محمد محمود ألدروبي، مؤسسة دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٩م ١٢٥

٩- ينظر: الرسالة في النثر العربي، حسن بن خليف، دار الفكر للنشر، بيروت، لبنان، د. ت، ص١٩.

١٠- ينظر: النثر الفني في القرن الرابع الهجري ، زكي مبارك، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط٣، (د. ت).: ٤٢.

١١- ينظر: منهاج البلغاء وسراج الأدباء صنعة حازم القرطاجني، تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، ط٢، بيروت، لبنان، ١٩٨٦م: ٥١.

١٢- ينظر: في الشعرية كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٧م: ٤٥.

١٣- ينظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير(٥٥٥ _ ٦٣٠ هـ)، دار صادر، بيروت- لبنان، ط١، ١٩٦٥م.: ٢/ ٣٧٢.

١٤- ينظر: التشكيل الإيقاعي ودلالاته في شعر يوسف الصائغ ،إيثار شكري شاكر النعيمي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الأنبار، ٢٠٠٨: ١٢٥.

١٥- ينظر : تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق سلام الدين المنجد، دمشق، مطبعة الشرقية، سوريا، ١٩٤٩م: ٢/ ١٨٩.

١٦- ينظر: التشكيل الإيقاعي ودلالاته في شعر رشدي العامل ، نواف خلف فرحان، كلية التربية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الأنبار، ٢٠٠٥م: ١٧٥.

١٧- الصورة في الشعر العربي حتى أواخر القرن الثاني الهجري ، د. علي البطل ، دار الأندلس ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٠م: ٤٤.

١٨- ينظر الصورة و البناء الشعري: للدكتور محمد حسن عبد ربه، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١ : ١٠٦.

١٩- ينظر فنون بلاغية (البيان والبديع)، د. أحمد مطلوب، دار البحوث العلمية، ط١، ١٩٧٥م: ٤٨-٤٩.

٢٠- ينظر معايير تحليل الأسلوب، ميخائيل ريفاتير، ترجمة وتعليق، د. حميد الحمداني، دار النجاح الجديد، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٣م: تمام/ ١٦٧.

٢١- جمهرة رسائل العرب ، أحمد زكي صفوت، ط١، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، بمصر، ١٩٣٧م: ٤٤٧.

٢٢- الكامل لابن الأثير(٥٥٥ _ ٦٣٠ هـ)، دار صادر، بيروت- لبنان، ط١، ١٩٦٥م: ٢/ ٣٢٦.

٢٣- جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة، أحمد زكي صفوت، ط١، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، بمصر، ١٩٣٧م: ٤/ ٤٤٧.

٢٤- ينظر الشيب والهرم في الشعر العربي في العصرين الإسلامي والأموي ودلالتهما الفنية، علي حسن جاسم الجنابي، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٩٧م.

٢٥- الصورة الفنية في المفضليات / ٢٠٤.

٢٦- ينظر: من الصوت إلى النص ، نحو نسق منهجي لدراسة النص الشعري، د. مراد عبد الرحمن، دار الوفاء، الإسكندرية، مصر، ط٢، ٢٠٠٢م.: ٢١٢.

٢٧- ينظر: البعد الأدبي لعلاقة القارئ بالنص: ٢١٠.

٢٨- ينظر:الكامل في التاريخ: ٢/ ٣٣٦.

٢٩- ينظر :الشعر والفن والجمال الشعر والفن والجمال، رضوان الشهال، ط دار الأحد، بيروت، لبنان، (د. ت): ١٢٧.

٣٠- ينظر :موسيقى الشعر:١٦-١٧.

٣١- ينظر :صبح الأعشى: ٦ /٣٤٥

٣٢- ينظر : قضايا الأدب ومظاهر التفكير في الأسلوب، محمد الهادي الطرابلسي، تونس، مركز الأبحاث الاقتصادية والاجتماعية، ١٩٧٨: ٢١٥.

٣٣- ينظر: صبح الأعشى: ٦/ ٣٨٧.

٣٤- ينظر :المصدر نفسه: ٦/ ٢٨٥.

٣٥- ينظر: الأصوات اللغوية: ١٨٦.ينظر: دلائل الإعجاز: ٤٨١.

٣٦- الكامل: ٢/ ٣٢٦.

٣٧- ينظر: قراءة في معنى المعنى عند عبد القاهر الجرجاني، مجلة فصول، المجلد ٧، العدد ٣، ١٩٨٧م.: ١٢٥.

٣٨- ينظر: الأسلوب ، دراسة بلاغية تحليلية ، أحمد الشايب ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٦م.

٣٩- ينظر :المصدر نفسه :١١٣ .

١- ينظر: الصورة في الشعر العربي حتى أواخر القرن الثاني الهجري ، د. علي البطل ، دار الأندلس ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٠م:١٢٣ .

٤٠- ينظر:قراءة في معنى المعنى :١٢٥ .

٤١- الرسائل الفنية في العصر العباسي، محمد محمود الدروبي، مؤسسة دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٩م: ٧٥ .

المصادر والمراجع:

١_الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع ، تأليف الخطيب القزويني جلال الدين أبو عبد الله محمد ابن قاضي القضاة سعد الدين بن أبي محمد عبدالرحمن القزويني ، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده ، مصر ، ١٣٨٥هـ .

٢- إعجاز القرآن ، للقاضي أبي بكر الباقلاني (ت ٤٠٣هـ) ، هامش الاتقان في علوم القرآن ، دار مكتبة الهلال ، بيروت . لبنان ، د.ت.

٣- البعد الأدبي لعلاقة القارئ بالنص، ميخائيل ريفاتير، مجلة الأقلام، العدد١، ١٩٩٩م.

٤- الأصوات اللغوية، د. إبراهيم أنيس، مكتبة الإنجلو المصرية، القاهرة، ط٥، ١٩٧٥م.

٥- تاريخ الترسل النثري عند العرب في صدر الإسلام ، د. محمود المقداد، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٣م: ١٢٥.

٦- تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق سلام الدين المنجد، دمشق، مطبعة الشرقية، سوريا، ١٩٤٩م. التشكيل الإيقاعي ودلالة شعر رشدي العامل، نواف خلف فرحان، كلية التربية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الأنبار، ٢٠٠٥.

٧- التشكيل الإيقاعي ودلالة شعر يوسف الصائغ، إيثار شكري شاكر النعيمي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الأنبار، ٢٠٠٨.

٨- دلائل الإعجاز عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ)، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، ط٣، ١٩٩٢م.

٩- جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة، أحمد زكي صفوت، ط١، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، بمصر، ١٩٣٧م.

١٠- خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي، شرح عصام شخيتو، دار ومكتبة الهلال، ط٢، بيروت، لبنان، ١٩٩١م.

١١- الرسائل الفنية في العصر العباسي، محمد محمود الدروبي، مؤسسة دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٩م.

١٢- الرسالة في النثر العربي، حسن بنخليف، دار الفكر للنشر، بيروت، لبنان، (د. ت).

١٣- الشعر والفن والجمال، رضوان الشهال، ط دار الأحد، بيروت، لبنان، (د. ت).

١٤- صبح الأعشى في صناعة النشا، للقلقشندي، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٨٧م. الشعر والفن والجمال، رضوان الشهال، دار الأحد، بيروت، لبنان، (د. ت).
١٥- الصورة في الشعر العربي حتى أواخر القرن الثاني الهجري ، د. علي البطل ، دار الأندلس ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٠م.
١٦- الصورة و البناء الشعري: للدكتور محمد حسن عبد ربه، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١.
١٧- فنون بلاغية (البيان والبديع)، د. أحمد مطلوب، دار البحوث العلمية، ط١، ١٩٧٥م.
١٨- في الشعرية، كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٧م.
١٩- فنون بلاغية (البيان والبديع)، د. أحمد مطلوب، دار البحوث العلمية، ط١، ١٩٧٥م.
٢٠- قراءة في معنى المعنى عند عبد القاهر الجرجاني، مجلة فصول، المجلد ٧، العدد ٣، ١٩٨٧م.
٢١- قضايا الأدب ومظاهر التفكير في الأسلوب، محمد الهادي الطرابلسي، تونس، مركز الأبحاث الاقتصادية والاجتماعية، ١٩٧٨.
٢٢- العقد الفريد لأحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، شرحه وضبطه أحمد أمين وآخرون، دار الكتاب العربي، ١٩٨٣م.
٢٣- الكامل في التاريخ، لابن الأثير(٥٥٥ _ ٦٣٠ هـ)، دار صادر، بيروت- لبنان، ط١، ١٩٦٥م.
٢٤-
٢٥- لسان العرب لابن منظور، تصحيح أمين محمد عبد الوهاب، ومحمد الصادق ألعبيدي، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٥م.
٢٦- المفصل في علوم البلاغة العربية، د. عيسى علي العاكوب، منشورات الكتب والمطبوعات الجامعية، حلب، ٢٠٠٠م.
٢٧- معايير تحليل الأسلوب، ميخائيل ريفاتير، ترجمة وتعليق، د. حميد الحمداني، دار النجاح الجديد، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٣م.
٢٨- منهاج البلغاء وسراج الأدباء صنعة حازم القرطاجني، تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، ط٢، بيروت، لبنان، ١٩٨٦م.
٢٩- موسوعة اصطلاحات العلوم الإسلامية (المعروف بكشاف اصطلاحات الفنون) للشيخ المولوي محمد أعلى بن علي التهانوي ، شركة خياط للكتب والنشر ، بيروت . لبنان ، ١٩٦٦م.

٣٠- معايير تحليل الأسلوب، ميخائيل ريفاتير، ترجمة وتعليق، د. حميد الحمداني، دار النجاح الجديد، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٣م.
٣١- من الصوت إلى النص، نحو نسق منهجي لدراسة النص الشعري، د. مراد عبد الرحمن، دار الوفاء، الإسكندرية، مصر، ط٢، ٢٠٠٢م.
٣٢- نقد الشعر، لأبي فرج قدامه بن جعفر، تحقيق كمال مصطفى، ط٣،
٣٣- النثر في العصر العباسي، د. هشام منّاع و د. مأمون ياسين، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٣م.
٣٤- النثر الفني في القرن الرابع الهجري، زكي مبارك، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط٣، (د. ت).
٣٥- وصف الطبيعة وتطوره في الشعر العربي الحديث، بيومي السباعي وآخرون، مطبعة الرسالة، مصر (د.ت).
٣٦- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، لأبي منصور بن محمد الثعالبي ، شرح وتحقيق مفيد محمد قميحة، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٣

this dissertation to the College of Arts, Baghdad University .

Being common in thei Umayyad caliphs messages r, "the contradictory dualities in the poetry of poets who lived through paganism and Islam" is a very important subject; and that is why I studied it.

Since that. mayyad caliphs messages After I collected the scientific material from certain books and references, I rearranged this material into a preface and four chapters.

In the preface, I tried to clarify the concept of contradiction and the bil Umayyad caliphs messages ateral relations and their relation to human being. It was the means which he could use to express some intellectual, civilizational and cultural breakdowns.

intellectual trends. This chapter includes three rget special contents and rare contents .

The second chapter deals with contradictory dualities in the social trends. which I studied the contradictory duality (hatred versus love(

and, in which I studied the contradictory duality (subservience(

in which I studied the contradictory duality (obedience versus disobedience(

The third chapter deals with contradictory dualities in

deals with the contradictory duality (poverty versus affluence(

and the deals with the contradictory duality (strength versus weakness(

The fourth chapter deals with contradictory dualities in the moral trends. This chapter includes three themes:

The first theme deals with the contradictory duality (good versus evil(

The second theme deals with the contradictory duality (honesty versus lying(

The third theme deals with the contradictory duality (faithfulness versus unfaithfulness(

I concluded my research with the most

imensions that brought afterwards. This vision is the product of the nomadic life that based on the concept of strength and superiority that requires physical strength.

The influence of Umayyad caliphs messages obvious on the duality of honesty and lying in both the moral level and the artistic level.

The Researcher